المحور الثالث: مدارس الاستشراق: (الفرنسية، الألمانية، الانجليزية) والأدب العربي

مقدمة:

يُعدّ الاستشراق من أبرز الظواهر الفكرية والثقافية التي ميّزت علاقة الغرب بالشرق، وقد ارتبط ظهوره ارتباطًا وثيقًا بحركة النهضة الأوروبية منذ القرن الثامن عشر، وببروز الاهتمام الغربي بالثقافات الشرقية، وخاصة العربية والإسلامية، في مجالات اللغة، والتاريخ، والدين، والفن، والأدب، كان هذا الاهتمام في بداياته يحمل طابعًا علميًا ومعرفيًا، إذ انكبّ الباحثون والمستشرقون على دراسة المخطوطات العربية واللغات الشرقية وترجمة النصوص التراثية الكبرى، إلا أنه سرعان ما ارتبط بأهداف سياسية واستعمارية مع تمدد النفوذ الأوروبي في الشرق، فصار الاستشراق جزءًا من منظومة فكرية تسعى إلى فهم الشرق من أجل السيطرة عليه.

ومع تطور الدراسات الاستشراقية، تبلورت مدارس كبرى في أوروبا اختلفت في مناهجها ومقاصدها، أهمها المدرسة الفرنسية التي امتازت بالدقة اللغوية والبحث التاريخي في التراث العربي والإسلامي، والمدرسة الألمانية التي ركزت على الفيلولوجيا والتحليل المقارن بين اللغات السامية، والمدرسة الإنجليزية التي جمعت بين الاهتمام السياسي والإثنوغرافي بالأدب والثقافة الشرقية.

وقد أسهمت هذه المدارس في إثراء الدراسات العربية من جهة، إذ قدّمت ترجمات وشروحًا للمصادر التراثية وأسهمت في تأسيس علم اللغة العربية المقارن، لكنها من جهة أخرى كرّست رؤية استعلائية تصوّر الشرق ككائن جامد وغريب يحتاج إلى تفسير غربي، وهو ما أثّر على صورة الأدب العربي في الوعي الأوروبي.

أنتج هذا التفاعل — رغم تناقضاته — حوارًا حضاريًا غير متكافئ بين الشرق والغرب، فتح آفاقًا جديدة أمام الدرس الأدبي العربي الحديث الذي وجد نفسه في مواجهة مع هذه الرؤية الخارجية، فحاول النقاد العرب اللاحقون تفكيك الخطاب الاستشراقي وإعادة بناء صورة الذات العربية في الأدب والنقد.

أولًا: المدرسة الفرنسية في الاستشراق — النشأة، الرواد، والتأثير في الأدب والنقد العربي

تُعد المدرسة الفرنسية من أعرق المدارس الاستشراقية وأكثرها تأثيرًا في دراسة اللغة والأدب العربيين، إذ ارتبط ظهورها بتطور الفكر العلمي في فرنسا وبالحضور الفرنسي في الشرق منذ أواخر القرن الثامن عشر.

- **النشأة والمنطلقات:**

نشأت المدرسة الفرنسية رسميًا مع تأسيس مدرسة اللغات الشرقية الحيّة في باريس سنة 1795م (École des Langues Orientales Vivantes)، عقب الحملة الفرنسية على مصر (1798–1801)، التي مثّلت منعطفًا معرفيًا كبيرًا في علاقة الغرب بالشرق، وقد تجسّد الاهتمام الفرنسي بالشرق في بعثات علمية ضخمة ضمّت لغويين ومستشرقين ومؤرخين جمعوا المخطوطات ودرسوها بغرض فهم الحضارة العربية والإسلامية، واتسمت هذه المدرسة منذ بدايتها بخصائص منهجية واضحة:

1. الصرامة الفيلولوجية في تحليل النصوص العربية القديمة.
2. المنهج التاريخي المقارن في دراسة اللغات السامية.
3. النزعة العقلانية الوضعية التي رأت في الشرق ميدانًا للبحث لا شريكًا في الحوار الحضاري.

كان هدف المدرسة الفرنسية المعلن هو خدمة العلم والمعرفة، لكن في عمقها كانت تخدم مشروع فرنسا الإمبراطوري عبر فهم الشرق لامتلاكه ثقافيًا كما حلّل إدوارد سعيد لاحقًا في كتابه الاستشراق.

- **رواد المدرسة:**

1. **أنطوان إسحق سيلفستر دو ساسي:(1758–1838) (Silvestre de Sacy)** يُعدّ المؤسس الحقيقي للدراسات العربية الحديثة في الغرب، وضع قواعد لتعليم العربية بفرنسا، وحرّر نصوصًا عربية قديمة مثل مقامات الحريري، واعتمد على منهج لغوي صارم جعل من العربية موضوعًا علميًا قائمًا بذاته، وأثره: ترسيخ المقاربة الفيلولوجية للنصوص العربية وإطلاق الاهتمام الأكاديمي المنظم بالعربية وآدابها.
2. **إرنست رينان:(1823–1892) (Ernest Renan)** ركّز على دراسة اللغات السامية وربطها بالرؤية الفلسفية عن "العقل السامي"، وقد قدّم في كتابه تاريخ اللغات السامية تصورًا تفاضليًا يرى أن العقل السامي "محدود بالتدين"، مقابل "العقل الآري المتحرر"، مما يعكس نزعة استعلائية عنصرية في الفكر الاستشراقي الفرنسي، وأثره: إرساء فكرة "الفكر العربي المتقيد بالدين" التي أثّرت لاحقًا في الدراسات الأوروبية حول الإسلام.
3. **لويس ماسينيون:(1883–1962) (Louis Massignon)** أبرز من درس التصوف الإسلامي، خاصة شخصية الحلاج، من منظور يجمع بين الفهم الروحي والعلمي، مثّل نموذجًا للمستشرق المؤمن بإمكانية الحوار بين الأديان والثقافات،و أثره: نقل التصوف الإسلامي إلى دائرة الاهتمام الأكاديمي الغربي وأسهم في إعادة الاعتبار للروحانية الإسلامية.

4. **جاك بيرك:(1910–1995) (Jacques Berque)** مثّل الجيل النقدي من المستشرقين، إذ دعا إلى "فهم الشرق من داخله" لا من خلال الصور النمطية الغربية، اشتغل على قضايا الثقافة العربية المعاصرة وترجم القرآن ترجمة تأملية حديثة، وأثره: فتح آفاقًا جديدة في التواصل الثقافي، وأسّس لرؤية نقدية إنسانية تتجاوز الاستشراق الكلاسيكي.

- **التأثير في الأدب والنقد العربي:**

كان للمدرسة الفرنسية أثرٌ بالغ في مسار الأدب العربي الحديث ونقده، إذ مثّلت فرنسا — منذ الحملة الفرنسية على مصر (1798) وما تلاها من احتكاك ثقافي — منبعًا أساسياً للاتجاهات الفكرية والأدبية الحديثة التي انتقلت إلى المشرق والمغرب العربيين، ويمكن تلخيص هذا التأثير في عدة مستويات رئيسية:

1. في اللغة والأسلوب الأدبي:

تأثّر الأدباء العرب بأسلوب الكتابة الفرنسية في الوضوح والبنية المنطقية والجمالية في التعبير، فبرزت في الكتابة العربية نزعة إلى التنظيم العقلي للنصوص، وإلى اعتماد اللغة أداة للتفكير والبرهنة، كما ظهر في أعمال المنفلوطي، وطه حسين، والعقاد الذين تأثروا بالمدرسة الكلاسيكية والرومانسية الفرنسية من حيث الاهتمام بالفرد، والعاطفة، والصدق الفني، وتأثر جبران خليل جبران ومي زيادة بأدب فيكتور هوغو وألفونس دي لامارتين، ما أدى إلى ظهور المدرسة الرومانسية العربية التي تمجد الذات والجمال والحرية.

2. في الفكر النقدي والمناهج الأدبية:

أدخلت المدرسة الفرنسية إلى الفكر العربي مناهج نقدية علمية جديدة مثل المنهج التاريخي والفيلولوجي الذي اهتم بدراسة النصوص في سياقها الزمني، ثم المنهج البنيوي والسيميائي في النصف الثاني من القرن العشرين عبر جامعات السوربون وليون وباريس الثامنة.

وقد أسهم نقّاد مثل صلاح فضل، وكمال أبو ديب، وعبد السلام المسدي، وعبد الملك مرتاض في نقل هذه المناهج إلى الساحة العربية، فظهرت دراسات البنية، والرمز، والدلالة في الأدب العربي، متأثرة بالمفكرين الفرنسيين رولان بارت، وتودوروف، وغريماس.

3. في الوعي الجمالي والتحديث الأدبي:

أدت الصلة بالثقافة الفرنسية إلى بروز مفهوم الأدب كفن مستقل عن الأخلاق والسياسة، وهو ما ساعد الأدب العربي على الانتقال من الطابع الوعظي والبياني إلى التجريب الفني والتفكير في اللغة بوصفها

إبداعًا، هذا التأثير بدا واضحًا في تطور الرواية والمسرح العربيين؛ فالمسرح العربي الحديث وُلد متأثرًا بموليير وراسين، والرواية الواقعية العربية استلهمت نماذج فلوبير وبالزاك.

4. في النقد الأدبي العربي:

ساهمت المدرسة الفرنسية في إرساء التحليل النقدي المنهجي بدل الانطباع الذوقي، فأصبح النقد العربي أكثر ارتباطًا بالمناهج الأكاديمية والتحليل البنيوي والسيميائي، وبرزت مدارس نقدية عربية في الجزائر، والمغرب، وتونس، ولبنان، تبنت هذه المقاربات العلمية في قراءة النصوص الأدبية.

- **نقد المدرسة الفرنسية في الاستشراق:**

رغم القيمة العلمية الكبرى للدراسات التي أنجزتها المدرسة الفرنسية في فقه اللغة وتحقيق النصوص العربية، فإنها لم تكن بريئة تمامًا من الخلفيات السياسية والثقافية التي وجّهت مسارها، فقد نظر العديد من الباحثين إلى الشرق من زاوية مركزية أوروبية تعتبر الغرب معيارًا للحضارة والعقلانية، والشرق فضاءً للغرابة والتقليد واللاعقل.

يرى إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق (1978) أن الفكر الفرنسي الاستشراقي — بخاصة عند إرنست رينان — كان يرسّخ فكرة تفوق "العقل الآري" على "العقل السامي"، وهو ما جعل من الدراسات اللغوية أداةً لإنتاج تراتب ثقافي وعنصري بين الأمم، فبدل أن يكون الاستشراق جسراً للحوار، تحوّل في كثير من الأحيان إلى خطاب هيمنة معرفية يبرّر الوجود الفرنسي في الشرق، خصوصًا في شمال إفريقيا ومصر.

كما وجّه نقّاد معاصرون مثل أنور عبد الملك وجاك بيرك أنفسهما نقدًا ذاتيًا إلى المدرسة الفرنسية، معتبرين أن كثيرًا من أعمالها قدّمت الشرق في صورة ثابتة جامدة، تُغفل التحولات الداخلية للمجتمعات العربية، فالمستشرق الفرنسي غالبًا ما يقرأ النص العربي من خارجه، أي من خلال منظومة فكرية غربية تفترض تخلّف الشرق واحتياجه إلى التنوير الأوروبي.

من جهة أخرى، تُؤخذ على المدرسة الفرنسية نزعتها الفيلولوجية المفرطة التي حصرت دراسة الأدب العربي في لغته ونحوه ومصادره القديمة، وأغفلت القيمة الجمالية والفكرية للنصوص الأدبية، فالمستشرق كان يقرأ القصيدة أو المقامة بوصفها وثيقة لغوية لا عملاً فنياً ذا دلالات ثقافية وتاريخية، هذه النزعة جعلت الأدب العربي يظهر في الدراسات الغربية كجسم لغوي ميت لا كتجربة إنسانية حية.

ومع ذلك، لا يمكن إنكار أن بعض رواد المدرسة الفرنسية — مثل لويس ماسينيون وجاك بيرك — حاولوا تجاوز هذه الرؤية الأحادية، إذ دعوا إلى فهم الشرق من داخله والاعتراف بعمق التجربة الروحية والفكرية الإسلامية.

لذلك، يمكن القول إن المدرسة الفرنسية مرّت من الاستشراق الكلاسيكي الإمبريالي إلى الاستشراق الإنساني النقدي الذي يتبنى الحوار والاحترام المتبادل، فكانت الرحم الذي وُلدت منه الحداثة الأدبية العربية؛ فقد فتحت أمام الأديب العربي أفقاً واسعاً للتجريب، وساعدته على فهم الأدب كظاهرة فنية وثقافية متكاملة، غير أن هذا التأثير لم يخلُ من إشكالية التبعية الفكرية التي دفعت النقاد العرب لاحقًا إلى محاولة تبيئة المناهج الفرنسية وتحريرها من سياقها الغربي لتتلاءم مع الخصوصية الثقافية العربية.

ثانيًا: المدرسة الألمانية في الاستشراق

- **النشأة:**

نشأت المدرسة الألمانية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، متأثرة بروح الفيلولوجيا (فقه اللغة المقارنة) التي كانت السمة المميزة للبحث العلمي في ألمانيا، وقد أولت اهتمامًا بالغًا بدراسة اللغات الشرقية القديمة، وخاصة العربية والعبرية والسريانية، في سياق ما كان يُعرف حينها بـ اللغات السامية.

كان الهدف الأساس للمستشرقين الألمان هو البحث العلمي الخالص، بعيدًا نسبيًا عن الدوافع الاستعمارية التي وسمت الاستشراق الفرنسي والإنجليزي، ومن هنا تميّزت المدرسة الألمانية بموضوعية نسبية، وبنزعتها إلى التحليل المقارن للنصوص ومحاولة فهم البنية العميقة للغة والفكر العربيين.

- **الروّاد:**

برز في هذه المدرسة عدد من كبار المستشرقين والعلماء الذين أسسوا لدراسة العربية والإسلام في أوروبا، منهم:

1. **يوهان جاكوب رايسكه (Johann Jakob Reiske):** يُعدّ من أوائل الدارسين للأدب العربي، وقد جمع بين فقه اللغة والتحليل الأدبي، واهتم بالتراث العربي الشعري والتاريخي.
2. **تيودور نولدكه (Theodor Nöldeke):** من أعظم فقهاء العربية في الغرب، ألّف كتاب تاريخ القرآن الذي أثار نقاشًا واسعًا حول مناهج دراسة النص القرآني.
3. **فريتز كريمر (Fritz Krenkow):** اهتم بدراسة الشعر العربي القديم وتحقيق دواوين الشعراء الجاهليين.

4. **كارل بروكلمان (Carl Brockelmann):** صاحب كتاب تاريخ الأدب العربي، وهو أضخم موسوعة عن الأدب العربي حتى اليوم.

هؤلاء الروّاد جعلوا من المدرسة الألمانية مرجعًا علميًا متينًا في تحقيق النصوص وفهم بنية اللغة العربية.

- **التأثير في الأدب والنقد العربي:**

كان للمدرسة الألمانية أثر عميق — وإن غير مباشر — في تطور الدراسات الأدبية العربية الحديثة، ويتجلى تأثيرها في النقاط الآتية:

أ. إثراء فقه اللغة والتحقيق العلمي: اعتمد المحققون العرب في القرن العشرين على المنهج الألماني في تحقيق المخطوطات وتحليل النصوص الأدبية القديمة اعتمادًا على الدقة الفيلولوجية، وقد استفاد من ذلك كبار الباحثين العرب مثل طه حسين وإبراهيم مصطفى وشوقي ضيف في مشاريعهم النقدية واللغوية.

ب. تأصيل البحث الأكاديمي المنهجي: أدخل الألمان إلى الدراسات العربية روح الموضوعية العلمية التي تبتعد عن الأيديولوجيا، فكانت أعمالهم مرجعًا في الجامعات العربية والأوروبية، وأسهمت في ترسيخ فكرة أن الأدب العربي يُدرس كظاهرة لغوية وثقافية قابلة للتحليل العلمي.

ج. تأثير غير مباشر في المناهج النقدية: من خلال فقه اللغة المقارنة والنقد التاريخي للنصوص، مهدت المدرسة الألمانية لظهور مناهج لاحقة أثرت في النقد العربي مثل المنهج التاريخي والتحليل النصي البنيوي الذي نقل العرب بعض أسسه عبر الجامعات الأوروبية.

فكثير من الدراسات النقدية العربية في القرن العشرين (مثل أعمال عبد السلام المسدي وعبد الملك مرتاض) اعتمدت المفهوم الفيلولوجي الألماني في قراءة البنية اللغوية للنص الأدبي.

- **نقد المدرسة الألمانية:**

على الرغم من طابعها العلمي الرصين، وابتعادها النسبي عن التسييس، فإن المدرسة الألمانية لم تَخْلُ من جوانب نقدية أبرزها:

- **الميل إلى التجريد اللغوي:** ركّزت على اللغة بوصفها نظامًا مغلقًا، وأغفلت الأبعاد الحضارية والروحية للنصوص العربية، فصارت القراءة عندها تحليلًا لغويًا أكثر منها فهمًا ثقافيًا.

- **المنظور التاريخي البارد:** تعاملت مع الأدب العربي القديم على أنه "نص من الماضي"، لا بوصفه تراثًا حيًا في وجدان الأمة.
- **النزعة المقارنة المهيمنة:** حاول بعض المستشرقين الألمان تفسير النتاج العربي في ضوء المقارنة مع اللغات السامية الأخرى (العبرية والسريانية)، مما أفقده خصوصيته الأدبية أحيانًا.

ومع ذلك، يبقى للمدرسة الألمانية فضل تأسيس منهج علمي صارم في دراسة الأدب العربي، يعتمد الدقة والتوثيق، ويشكّل قاعدة أساسية للبحث الأكاديمي في العالم حتى اليوم.

إذن المدرسة الألمانية تُمثل الوجه العلمي الفيلولوجي للاستشراق، إذ حافظت على مسافة من الأيديولوجيا الاستعمارية، وساهمت بعمق في حفظ التراث العربي وتحقيقه علميًا. لكنها من جهة أخرى جرّدت النص العربي من حيويته الجمالية والثقافية حين قصرته على ميدان البحث اللغوي والتاريخي.

ثالثًا: المدرسة الإنجليزية في الاستشراق

- **النشأة:**

نشأت المدرسة الإنجليزية في ظلّ التوسع الاستعماري البريطاني في الشرق، خاصة في الهند ومصر والبلاد العربية، تميزت بتوجه عملي يخدم المصالح السياسية والإدارية، لكنها أيضًا أسهمت في بناء معرفة علمية بالأدب العربي والإسلامي، وقد ازدهرت في القرن التاسع عشر مع تأسيس كراسي الدراسات الشرقية في جامعات أكسفورد وكامبريدج ولندن، وكان هدفها المزدوج هو الفهم الأكاديمي والثقافي للشرق، إلى جانب توظيف المعرفة لخدمة السياسة البريطانية.

من أبرز مظاهر نشأتها، دعم وزارة المستعمرات للأبحاث في اللغات الشرقية، وإنشاء مراكز بحثية متخصصة في الشرق الأدنى والإسلاميات.

- **الرواد:**

1. **إدوارد وليم لين (Edward William Lane):** صاحب معجمLane's Lexicon ، وأحد أوائل من درسوا الأدب العربي الكلاسيكي ترجمةً وتحليلًا.
2. **ريتشارد بورتون (Richard Burton):** رحالة ومستشرق، ترجم ألف ليلة وليلة ترجمة موسعة مملوءة بالملاحظات الأنثروبولوجية والاجتماعية.
3. **ديفيد صموئيل مرجليوث (D. S. Margoliouth):** متخصص في الشعر الجاهلي والأدب الإسلامي المبكر.

4. **توماس أرنولد (Thomas W. Arnold):** مؤلف الدعوة إلى الإسلام، وقدّم رؤية متزنة عن التاريخ الإسلامي.
5. **رينولد نيكلسون (Reynold A. Nicholson):** من كبار دارسي التصوف الإسلامي، وخصوصًا جلال الدين الرومي.
6. **هاملتون جيب (H. A. R. Gibb):** أبرز من درس الأدب العربي في القرن العشرين من منظور ثقافي مقارن.

- **التأثير في الأدب والنقد العربي:**

أسهمت المدرسة الإنجليزية في تطوير الدراسات المقارنة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية، وساعدت على ظهور الوعي بالهوية الأدبية العربية في مواجهة المركزية الغربية.

قدّمت دراسات معمقة حول الشعر الجاهلي واللغة والبلاغة، مما أثّر في اتجاهات النقاد العرب في النصف الأول من القرن العشرين، مثل طه حسين وأحمد أمين.

تأثّر عدد من النقاد العرب بالمناهج الموضوعية والتحليل التاريخي الذي ميّز المدرسة الإنجليزية، وخاصة في الجامعات المصرية والسودانية والعراقية التي كانت على صلة بالمؤسسات الأكاديمية البريطانية.

كما كان لها دور في نقل منهج البحث الوثائقي والتحقيق العلمي للمخطوطات إلى العالم العربي، وهو ما انعكس على جيل من الباحثين الذين أولوا العناية بالنص التراثي.

- **نقد المدرسة الإنجليزية:**

رغم القيمة العلمية الكبيرة لدراساتها، فإنها لم تخلُ من نزعة استعمارية مضمرة، إذ كانت تهدف أحيانًا إلى فهم الشرق بغرض السيطرة عليه ثقافيًا وإداريًا، وقد لاحظ المفكر الفلسطيني إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق (1978) أن كثيرًا من المستشرقين الإنجليز أسهموا في تكريس صورة دونية عن الشرق، تخدم فكرة التفوّق الغربي.

ومع ذلك، فإن بعض روادها مثل توماس أرنولد ونيكلسون تميزوا بموضوعيتهم واحترامهم للحضارة الإسلامية، مما يجعل المدرسة الإنجليزية أكثر اعتدالًا وإنصافًا مقارنة بالفرنسية.

خاتمة:

إنّ دراسة مدارس الاستشراق (الفرنسية، والألمانية، والإنجليزية) تكشف عن تعدّد الرؤى والمناهج التي تعامل بها الغرب مع الأدب العربي والتراث الإسلامي، فبينما انطلقت المدرسة الفرنسية من نزعة لغوية

وفيلولوجية متأثرة بروح التنوير والعقلانية، ركّزت المدرسة الألمانية على البحث الفلسفي المقارن والتعمق في الجوانب الفكرية واللغوية، في حين جمعت المدرسة الإنجليزية بين البعد العلمي والهدف السياسي الاستعماري، محاولةً توظيف المعرفة لخدمة مصالحها الإمبراطورية.

ورغم ما شاب هذه المدارس من نزعة مركزية أوروبية ونظرة استعلائية إلى الشرق، إلا أنها أسهمت بقدرٍ كبير في تطوير الدراسات العربية والإسلامية، وفي فتح آفاق جديدة أمام العرب للاطلاع على المناهج النقدية الحديثة، والتحليل اللغوي والتاريخي للنصوص، لقد شكّل الاستشراق – على ما فيه من تحيزات – مرآة عاكسة للتفاعل الثقافي بين الشرق والغرب، مما يجعل دراسته ضرورة أكاديمية لفهم جذور العلاقة بين المعرفة والسلطة في التاريخ الحديث.